@Tafsircenter

مشروعية توظيف اللسانيات في تفسير القرآن الكريم

دراسة لآراء الرافضين والمؤيدين

زكرياء عريف

www.tafsir.net

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies

المعلومات والآراء المقدَّمة هي للكتّاب، ولا تعبّر
بالضرورة عن رأي الموقع أو أسرة مركز تفسير

ملخص البحث:

تناقش هذه الورقةُ البحثيةُ موضوعَ توظيف علم اللسانيات الحديث في تفسير وقراءة النصّ القرآني؛ مبرزة باقتضاب مفهوم عِلْم اللسانيات وتطوّراته المختلفة التي أفضَتْ إلى نشأة علوم متفرّعة عنه ومنها علم الدلالة بصيغته الحديثة، بعد ذلك تتوقّف الورقة عند مواقف بعض الباحثين من توظيف الدرس اللساني في قراءة النصّ القرآني بين الرفض والقبول، ثم تنتقل أخيرًا إلى مناقشة هذه الآراء وتحرير القول في مشروعية توظيف اللسانيات الحديثة في تفسير أو قراءة النصّ القرآني، من خلال نقد بعض النماذج التطبيقية المؤدلجة (مثال القراءة السيميائية لمحمد أركون)، ثم الدفاع عن القراءة الموضوعية للخطاب القرآني التي توظّف هذا العلم بشكلٍ سليمٍ لا يتصادم مع قطعيات القرآن الكريم ونسقه المعرفي واللغوي، ومثّلنا لذلك بالمحاولة اللسانية الدلالية لكلّ من الباحث الياباني إيزوتسو والباحث المغربي مصطفى تاج الدين.

مقدمة:

منذ اللحظة الأولى التي انبثق فيها الوحي في غار حراء مع أول كلمة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، والإنسان المسلم يسعى إلى فهم مدلولات النصّ القرآني؛ على اعتبار أنه منطلق الحركة الاجتهادية، ومحور الحضارة الإسلامية؛ فهو نصٌّ مركزي في الثقافة العربية الإسلامية مُشكِّلٌ لمسلّمات رؤية المسلم للعالم. لذلك فمنذ انقطاعِ الوحي وتوقُّفِ الحوار بين السماء والأرض؛ ستسعى الجماعة الإسلامية إلى إنشاء جملة من العلوم التي تروم الوصول إلى «مراد الله تعالى»؛ مما يمكّنها من استنباط الأحكام الشرعية والوقوف على الرؤية الوجودية في القرآن الكريم وعيًا بكون القرآن الكريم صالحًا لكلّ زمان ومكان، وبالتالي تتجسّد فيه جدلية الوحي والواقع المتحرك، وَفقًا لذلك تفاعَل المسلمون في مختلف السياقات الحضارية مع النصّ القرآني بالمناهج العلمية والأدوات المعرفية التي كانت سائدة في أوقاتهم، الأمر الذي نتج عنه عشرات التفاسير ذات المناحي المتعددة (فقهية، وإشارية، ولغوية، وبلاغية...)، وفي السياق الحديث توالت محاولة تفسير أو قراءة القرآن الكريم[1]؛ فظهرتْ ما تسمى

(١) تنطلق دلالة التفسير في اصطلاح هذا البحث من معناه الواسع الذي لا يقتصر فقط على بيان معاني ومدلولات الألفاظ، بل يتعداه إلى كشف الأحكام والحكم والهدائيات، وهذا ما يتفق مع التعريف الذي أورده الزركشي بقوله بأن التفسير هو: «علم يُفهم به كتاب الله المنزّل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه»، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: أبو الفضل الدمياطي، (القاهرة: =

بالقراءات الحداثية للقرآن الكريم التي وظّفَت المناهج الحديثة؛ خصوصًا المنهج التاريخي، والمناهج الأدبية بما فيها (اللسانيات) و(السيميائيات) و(نظرية التلقي)؛ في محاولة لاكتناه معاني ودلالات النصّ القرآني الذي لا تنقضي عجائبه.

إشكالية وتساؤلات البحث:

لقد أثار توظيفُ المناهج الحديثة وخصوصًا اللسانيات ونقلُها من مجال الدراسة الأدبية والإنسانية إلى حقل التفسير والنصّ القرآني الإلهي =مجموعةً من التساؤلات، التي نصوغها كالآتي: ما مدى مشروعية توظيف المنهج اللساني في تفسير وقراءة القرآن الكريم؟ وإلى أيّ حدّ تبلغ درجة موضوعيته في قراءة النصّ القرآني المطلق؟ وما أنواع القراءات المتوافرة حاليًا بناءً على استثمار المنهج اللساني؟

=

دار الحديث، ٢٠٠٦)، (١/ ٢٢). ويورد البحث في بعض الأحيان مفهوم القراءة، الذي يرتبط بالدراسات القرآنية المعاصرة ويفيد معنيين: معنى مرادف للتفسير، ومعنى آخر يقابل التفسير بحيث يتجاوزه إلى التأويل الحر الذي لا ضابط له اعتمادًا على النظريات الحديثة، للاطلاع أكثر على مفهوم القراءة، وصلتها بعلم التفسير. ينظر: السقوط الحداثي، نقد المنهج في التعامل مع النص القرآني، محمد علواش، ط١ (إربد: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ٢٠١٩)، ص٥٨- ٥٩؛ ومفهوم القراءة عند الحداثيين وعلاقته بالتفسير، فاطمة الزهراء الناصري، ضمن أعمال ندوة القراءات المعاصرة للقرآن الكريم رصد ونقد، ط١ (المحمدية: منشورات المجلس العلمي المحلي، ٢٠١٢)، ص٤٩- ٨٣.

أهمية البحث وأهدافه:

تكمن أهمية هذا البحث في كونه سيتطرّق بالدراسة والتقييم لتوظيف اللسانيات في قراءة النصّ القرآني، وبيان مدى مشروعية هذا التوظيف لمنهجٍ إنساني نسبي في قراءة نصّ قرآني إلهي مطلق، كما يروم البحث بيان أوجه الإفادة من هذا المنهج باستحضار نماذج تطبيقية سعَت إلى توظيف موضوعي للسانيات في تفسيرها للخطاب القرآني، في مقابل قراءات أخرى حاججت الورقة على كونها تنزع نحو التوظيف الأيدلوجي لهذا المنهج.

منهج البحث:

سيتمّ اعتماد منهج وصفي تحليلي يرصد نماذج لتوظيف اللسانيات في قراءة القرآن الكريم، ثم ينتقد ويفكك هذا التوظيف في بُعده الأيدلوجي، استنادًا إلى ضوابط التفسير ونسقه المعرفي الداخلي.

خطة البحث:

في ضوء ما سبق، سيتمّ بسط القول في اللسانيات وعلاقتها بالدرس القرآني؛ وذلك وَفق الخطة الآتية:

مدخل تمهيدي: اللسانيات: المفهوم والنشأة والتطور:

المطلب الأول: مفهوم ونشأة اللسانيات.

المطلب الثاني: تطور اللسانيات.

المطلب الثالث: علم الدلالة بين القديم والحديث.

المبحث الأول: توظيف اللسانيات في التفسير؛ عرض لآراء الرافضين والمجيزين للتوظيف:

المطلب الأول: المعترضون على توظيف اللسانيات في تفسير وقراءة النصّ القرآني.

المطلب الثاني: الموافقون على توظيف اللسانيات في تفسير وقراءة النصّ القرآني.

المبحث الثاني: توظيف اللسانيات في التفسير؛ مناقشة وتحرير:

المطلب الأول: في مشروعية توظيف المنهج اللساني في تفسير القرآن الكريم.

المطلب الثاني: توظيف اللسانيات في تفسير القرآن الكريم بين الأيدلوجيا والموضوعية.

١- التوظيف الأيدلوجي: محمد أركون أنموذجًا.

٢- التوظيف الموضوعي: إيزوتسو، مصطفى تاج الدين أنموذجًا.

خاتمة البحث.

مدخل تمهيدي: اللسانيات؛ المفهوم والنشأة والتطور:

المطلب الأول: مفهوم ونشأة اللسانيات:

علم اللسان أو اللسانيات علم حديث العهد، ظهر في بداية القرن العشرين على يد العالم السويسري المشهور فرديناند دي سوسير مؤسِّس اللسانيات الحديثة. وموضوع هذا العلم هو: «الدراسة العلمية الموضوعية للّسان البشري، أي: دراسة تلك الظاهرة العامة والمشتركة بغضّ النظر عن كلّ الاعتبارات الأخرى التي لا تعدّ من صلب اللسانيات (...)؛ فهو علم لا ينظر إلّا في خصائصها الذاتية، وقد حدّد دي سوسير مجاله فقال: إنه (دراسة اللسان منه وإليه)، أي: من أجله ولذاته؛ بهدف كشف المميزات العامة المشتركة بظاهرة اللسان البشري من خلال دراسة اللغات الطبيعية المختلفة المتداولة بين بني البشر، وتطمع هذه الدراسة أن تكون دراسة وصفية علمية (...). فلا يهتم العالم اللساني إلّا بوصف الأحداث اللسانية وتحليلها كما تتحقّق في الواقع وليس على الحال الذي يريد هو أن تكون عليه»[(١)].

الملاحظ من هذا التعريف أنّ اللسانيات تهتم بدراسة اللسان البشري، انطلاقًا من معايير موضوعية بعيدًا عن المعايير الذاتية وكلّ القَبْليات المعرفية والأيدلوجية للقارئ -إذا صحّ هذا الطرح حقًّا-؛ وذلك بالبحث في أغوار اللغة

(١) مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، ط٢، (الجزائر: دار القصبة، ٢٠٠٦)، ص٩، بتصرف.

متمثلة في الإنجاز اللغوي البشري. فالاعتبار الأول للنصّ؛ لذلك «فهو يرقى بدراسته إلى درجة الدراسة العلمية المتّصفة بالموضوعية والمنهجية والدقّة المضبوطة»[١]، لا سيما إذا استحضرنا ظروف نشأة هذا العلم المرتبطة أساسًا بتطوّر العلوم الحقّة، فهذا العلم «يتحرّى في كلّ ذلك الموضوعية التي عرفت بها العلوم الطبيعية والدقيقة؛ فيتطرّق للوقائع اللسانية بالمشاهدة والاستقراء والتحليل والإحصاء، ويستغلّ في ذلك أحدث الوسائل والآلات والحواسيب ويجري التجارب في المخابر حيث يحلّل الصوت مثلًا أو أيّ نوع من الوحدات اللغوية الأخرى ثم يبني النظريات بعد استنباطه للقوانين (...)»[٢].

وبما أنّ اللغة البشرية تتضمّن مجموعة من المستويات المختلفة؛ فإنّ الدراسة اللسانية تنظر إلى اللغة بإزاء هذه المستويات: الصوتية، الصرفية، التركيبية أو النحوية، ثم المستوى الدلالي، أي: دراسة المعاني اللغوية للمفردات والتراكيب، وكلّ هذه المستويات تقع في المستوى النظري أو ما يسمى باللسانيات النظرية[*].

(١) مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، ص٩.

(٢) مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، ص١٠.

(*) استفادت مجموعة من الحقول المعرفية من اللسانيات؛ فيما أضحى يسمى باللسانيات التطبيقية (اللسانيات: الاجتماعية، النفسية، الجغرافية، العصبية...).

المطلب الثاني: تطور اللسانيات:

انطلاقًا من تعدّد المستويات المتنوّعة للسانيات؛ سيتفرّع كلّ منها ليشكِّل علومًا ونظريات مستقلّة منفصلة عن اللسانيات الأمّ، وذلك ابتداء من ق١٩؛ فنشأ علم النحو التوليدي مع تشومسكي، وعلم السيميائيات (علم العلامات والرموز)، والفونتيك (علم الصوتيات)، وعلم الدلالة الحديث، هذا الأخير الذي سنتناوله بالدرس من خلال نشأته التاريخية، وماهيته، ثم إمكانية توظيفه في النصّ القرآني أخذًا بعين الاعتبار أنّ بعض الباحثين المعاصرين وظّفوه في قراءتهم للنصّ القرآني (المستعرب الياباني إيزوتسو مثلًا الذي سنعرض لاحقًا في هذه الورقة قراءته للخطاب القرآني).

ووجه علاقة علم الدلالة الحديث باللسانيات يكمن في كونه يعدّ مستوى من مستوياتها، لكنه يفارقها من حيث إنّ اللسانيات تهتم بالكلمات بمختلف مستوياتها النحوية والصرفية والصوتية، بينما علم الدلالة يهتم بجوهر هذه الكلمات ومضامينها، أي: الكلمات من حيث إنتاجها للمعنى[١]. وسبب هذه المفارقة (أي: انفصال علم الدلالة عن اللسانيات العامة) يرجع حَسَب مؤسّس هذا العلم (الفرنسي بريال) إلى عدم اهتمام علماء اللسانيات بدلالة الكلمات[٢].

(١) علم الدلالة؛ أصوله ومباحثه في التراث العربي، منقور عبد الجليل (دمشق: اتحاد الكتّاب العرب، ٢٠٠١)، ص٢١، بتصرف.

(٢) ينظر: علم الدلالة؛ أصوله ومباحثه في التراث العربي، منقور عبد الجليل، ص٢٠.

المطلب الثالث: علم الدلالة بين القديم والحديث:

الدلالة تعني لغةً: إبانة الشيء بأمارة تتعلّمها، يقال: دللتُ فلانًا على الطريق، والدليل: الأمارة في الشيء. أمّا الدلالة اصطلاحًا فيعرفها الجرجاني، فيقول: «الدلالة هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر»[(١)]. أمّا علم الدلالة في صورته الحديثة فموضوعه هو: دراسة المعنى، أو دراسة معنى الكلمات، وذلك من خلال مسارين: «١- الوقوف على القوانين التي تنتظم تغير المعاني وتطوّرها. ٢ - اتّباع المنهج التطوري التأصيلي الذي يقف على ميلاد الكلمات ويتتبّعها في مسارها التاريخي»[(٢)].

وبتتبّع مسار تشكُّل هذا العلم، يتّضح أنه لم يُولد من فراغ، وإنما هو حصيلة تراكم تاريخي، أسهمت فيه أمم مختلفة؛ فقد «بدأ البحث عنه (المعنى) منذ أن حصل للإنسان وعي لغوي، وقد وُجد هذا مع علماء الهند* واليونان، كما اهتم اللغويون العرب وعلماء الأصول بدراسة المعنى ووضعوا قواعد وأصولًا لاستنباطه»[(٣)]؛ وبناءً عليه فإنّ البحث في المعنى أو الدلالة له جذور في

(١) المعجم وعلم الدلالة، سليمان الغماش (موقع لسان العرب)، ١٤٢٨هـ، ص٨.

(٢) علم الدلالة؛ أصوله ومباحثه في التراث العربي، منقور عبد الجليل، ص٢١، بتصرف.

(*) طبقوا دراسة المعنى والدلالة من خلال قراءتهم لكتابهم المقدّس (الفيدا).

(٣) استخدام علم الدلالة في فهم القرآن: قراءة في تجربة الياباني توشيهيكو إيزوتسو، عبد الرحمن حللي، شبكة الألوكة، ص٢.

الماضي التليد، وهو ليس غريبًا عن التراث العربي؛ «فالبحث اللغوي عند العرب منذ بداياته تركّز على تحديد المعنى وما يحتويه القرآن الكريم من معانٍ ومقاصد. فلقد كان هَمّ الدراسات العربية بمختلف فروعها ومسمّياتها نحوًا وصرفًا وبلاغةً ولغةً ومعاجم =معرفة المعنى»[(١)]. فاتجهت جهود أعلام الأمة إلى إبراز المعنى الثاوي في نصوص القرآن الكريم باعتباره النصّ المؤسّس للحضارة الإسلامية وفلك دورانها ومنطلق عالميتها الأولى. بدءًا من علماء أصول الفقه الذين «اهتموا بالمباحث الدلالية لأهميتها في استنتاج الأحكام الشرعية من النصوص الدينية؛ لذا نجدهم في كُتُبِهم يعالجون مسائل العلاقة بين اللفظ والمعنى، والحقيقة والمجاز، والاشتراك اللفظي والترادف والعام والخاص وغير ذلك...»[(٢)]، ثم تطوّر الأمر إلى دراسات خاصّة مع ثلّة من الأعلام الذين أبدعوا في هذا العلم -أو المبحث على الأقلّ- على غرار ابن جنّي في خصائصه، والجرجاني في نظريته المشهورة (النَّظْم) التي فصّلها في كتابه (دلائل الإعجاز)، في هذا الصّدد يقول محمد مندور مؤكِّدًا سبق الجرجاني إلى ابتكار نظرية في النَّظْم: «وفي الحقّ إنّ عبد القاهر قد اهتدى في العلوم اللغوية كلِّها إلى مذهب لا يمكن أن نبالغ في أهميته، مذهب يشهد لصاحبه بعبقرية

(١) علم الدلالة عند العرب، عليان الحازمي، مجلة جامعة أم القرى، ع٢٧، (١٤٢٤هـ)، (١٥/ ٧٠٧).
(٢) المعجم وعلم الدلالة، سليمان الغماش، ص٢٢.

لغوية منقطعة النظير (...)، مذهب عبد القاهر هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوروبا لأيامنا هذه. هو مذهب العالم السويسري الثبت فردناندي سوسير (...) لقد فطن عبد القاهر إلى أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ، بل مجموعة من العلاقات»[(١)]. ومؤدّى هذه النظرية المبدعة في علاقتها بالدلالة، هو: «أنه لا اعتداد بمعاني الكلمات المفردة إن لم تنتظم في سياق تركيبي، وهو ما يعرف بالنحو، فهو يرى أن الدلالة المعجمية معروفة لمعظم أهل اللغة، ولكن دلالة اللفظة التي تكتسبها خلال نظمها في سياق تركيبي هي التي يسعى إليها مستخدم اللغة، لاختلاف دلالة اللفظة تبعًا للتركيب النحوي الذي تنتظم فيه، والمواضع المختلفة التي تحتلّها في السياقات الناتجة عن أصل سياقي واحد»[(٢)].

لكن حتى لا نطلق أحكامًا عامة وإسقاطات غير علمية؛ نقول بأن هذه النظرية تبقى قاصرة عن ما جاء به علم الدلالة الحديث، وهذا القصور يرجع أساسًا إلى كونها كانت نظرية خاصّة بنظم المعنى في القرآن الكريم منها إلى نظرية عامة. لكن رغم ذلك فإنّ هذه الجهود المختلفة أسهمت في بلورة اللسانيات بصفة عامة، وعلم الدلالة على وجه الخصوص، باعتراف رواد

(١) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة، محمد مندور، (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٩٦)، ص٣٣٣- ٣٣٤.

(٢) الموسوعة العربية العالمية.

اللسانيات الغربيين، يقول (مارتيني) في هذا الصدد: «وأنا أقول إنّ كثيرًا من البحوث العربية ساعدتْ بل أسهمتْ في بناء ما يُسمى علم اللسانيات الحديث»[١]. لكن كلّ هذا الحضور القوي للدلالات في السياق العربي في العلوم العربية والدراسات الشرعية «لم ينته إلى ظهور علم مستقلّ باسم (الدلالة)؛ إذْ ظهر هذا الإفراد في أواخر ق١٩ (١٨٨٣م) مع اللغوي الفرنسي بريال ليعبّر عن فرع من علم اللغة العام هو (علم الدلالات)»[٢].

في ضوء ما سبق، يمكن القول بأنّ الجديد في هذا المبحث هو تبلوره على شاكلة علمٍ قائم الذات، وهذا لا ينفي أنّ باقي الأمم، وخاصة «علماء العرب القدامى الذين أسهموا في تأسيس وعي دلالي مهم»[٣]. إلا أنه تبلور على شكلِ نظرية، لها مقوماتها ومرتكزاتها الناضجة في السياق الحديث؛ ذلك أنّ «علم اللسانيات الحديث طوّر نظرياته ووضع أصوله، ووضّح معالمه، وبيّن صلته بالعلوم الأخرى، فغدا هذا علمًا قائمًا بذاته له مناهجه ونظريته...»[٤].

(١) النظريات النحوية والدلالية في اللسانيات التحويلية والتوليدية، مازن الوعر، مجلة اللسانيات، ع٦، الجزائر (١٩٨٢).

(٢) استخدام علم الدلالة في فهم القرآن: قراءة في تجربة الياباني توشيهيكو إيزوتسو، عبد الرحمن حللي، ص٢.

(٣) علم الدلالة؛ أصوله ومباحثه في التراث العربي، منقور عبد الجليل، ص٢٠.

(٤) دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص١٠٨- ١٠٩.

المبحث الأول: توظيف اللسانيات في التفسير؛ عرض لآراء الرافضين والمجيزين للتوظيف:

جدير بالذِّكْر قبل بسط القول في مدى مشروعية توظيف اللسانيات في تفسير القرآن الكريم، أنّ اللسانيات بمختلف تلاوينها قد وُظّفت أساسًا في النصوص الأدبية، ثم انتقلت بعد ذلك إلى دراسة النصوص الدينية، بما في ذلك النصّ القرآني في مرحلة متأخرة (١٩٥٠)...، ولعلّ هذه المرجعية التاريخية، قد تثير الكثير من الشَّكِّ والريبة عند محاولة توظيف هذا المنهج الوضعي على القرآن الكريم الإلهي المصدر، في مقابل النصوص الأدبية البشرية المصدر، وهذا ما سنتطرق إلى مقاربته في المطلبين الآتيين.

المطلب الأول: المعترضون على توظيف اللسانيات في تفسير وقراءة النص القرآني:

يعترض بعض الدارسين على إقحام اللسانيات في تفسير القرآن الكريم؛ على اعتبار أن هذا العلم مرتبط بخلفيات فكرية وثقافية غربية؛ فهو لا يمثّل أداة إجرائية موضوعية يمكن اعتمادها بسلاسة في تفسير القرآن الكريم دون تجاوز لإطلاقيته، وإنما يمثّل فلسفة معيّنة غربية انبثقت من رحمها كلّ النظريات المادية الغربية، ومن هؤلاء الذين يرفضون أو يتحفّظون على الأقلّ على توظيف اللسانيات في سياق قراءة النصّ القرآني، الباحث السوري (عبد الرحمن الحاج)؛ بحيث يقول عن علم اللسانيات أنه «نشأ في ظروف تمدّد المنهجية الغربية وبسط نفوذها على العلوم الإنسانية لإخضاعها لمنطق الحِسّ (بالرغم

من مفارقتها له)؛ ولذلك فإن هذا العلم (اللسانيات) علم يقوم على أرضية فلسفية وإبستمولوجية (أصول معرفية) وضعية، وهو بذلك ليس علمًا حياديًّا، مما يجعل استعماله محفوفًا بالمخاطر خصوصًا إذا كان موضوع تطبيقه القرآن الكريم»[1].

إذن فبِحَسَب وجهة النظر هذه فإنّ هذا العلم ليس بمعزل عن التصوّر الغربي الوضعي للعلوم، الذي يرسخ لأطروحة أنّ كلّ علم لا يخضع للمعايير التجريبية يعدّ ضربًا من الخرافة والغيب والميتافيزيقا بلا تمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية التي يحضر فيها البعد النسبي بشكلٍ كبيرٍ. ثم إن هذه العلوم -بحسَب هذا الموقف المتحفّظ- تعدّ متحيزة لسياقها ومجالها التداولي الذي أُنتجت في إطاره وتجاوبت مع إشكالاته، وليست علومًا انبنَتْ على الاستقراء الكلي للغات العالم. وبما أنّ اللسانيات بصفة عامة وليدة فلسفة معينة، فقد وظّفها الحداثيون العرب في إطار قراءتهم للقرآن الكريم تأثرًا بالحداثة الغربية ومكتسباتها وأدواتها المعرفية، بعدما سبقهم المستشرقون في قراءة النصوص الدينية المسيحية واليهودية. فاللسانيات من هذا المنطلق لا تعدو أن تكون علمًا غربيًّا متحيزًا لسياقه الغربي، والذي ظهر في بادئ الأمر لقراءة النصوص الأدبية، ثم انتقل بعد ذلك إلى دراسة النصوص الدينية.

(١) المناهج المعاصرة في تفسير القرآن وتأويله، عبد الرحمن الحاج، ملتقى أهل التفسير، ٢٠٠٨.

والغرض من وراء توظيف اللسانيات ليس بريئًا، كما يستعرض ذلك الدكتور طه عبد الرحمن في إطار حديثه عن خُطط القراءة الحداثية للقرآن الكريم، والتي من بينها: خطة العقلنة؛ التي تتغيّا رفع الغيبية عن القرآن وذلك من خلال «التعامل مع الآيات القرآنية بكلّ وسائل النظر والبحث التي توفّرها المنهجيات والنظريات الحديثة»[(١)]. دونما تفريق بين النصّ الأدبي البشري النسبي، والنصّ القرآني الرباني المطلق المُفارق؛ لذلك فـ(طه عبد الرحمن) يرى أنّ هذه العلوم والنظريات تخدم القراءة الحداثية، ومنها علم (اللسانيات)؛ «فلم يجد القارئ الحداثي حرجًا أن ينزل مختلف مناهج علوم الإنسان والمجتمع على النصّ القرآني، معتبرًا مقتضياته البحثية لا تختلف عن مقتضيات غيره من النصوص؛ نذكر من هذه العلوم على الخصوص: (اللسانيات) و(السيميائيات) و(علم التاريخ) و(علم الاجتماع) و(علم الأناسة) و(علم النفس) و(التحليل النفسي)»[(٢)]، وبالتالي فاللسانيات أخذَت مع هؤلاء الباحثين بُعدًا سلبيًّا.

تأسيسًا على ما سبق، يُجْمِل الباحث محمد علواش الآفات المنهجية للقراءة الحداثية للنصّ القرآني، بما في ذلك التوسّل بالمنهج اللساني والتي ضلّت بها -بحسَب رأيه- عن طريق الفهم الموضوعي، وهي أولًا: «تجاهل

(١) روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، طه عبد الرحمن، ط١ (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦)، ص١٨١.

(٢) روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، طه عبد الرحمن، ص١٨٢.

الحداثيين النزعة الوضعية للمناهج الغربية (...)، وهذا التجاهل قاد إلى الاصطدام مع البعد الإلهي لمصدرية النصّ القرآني»[١]، والآفة الثانية هي أنهم «ينظرون إلى المناهج الغربية على أنها حقائق ثابتة، لها القدرة على استنفاذ إمكانيات النصّ دلاليًّا ومقاصديًّا»[٢]، وذلك دون إدراك حدودها النسبية وخلفياتها الحداثية الوضعية، وثالث الآفات بنظر الدكتور محمد علواش هو «الجهل بطبيعة المناهج الغربية ومآلاتها، فهي تتعامل مع النصوص باعتبارها مادة لغوية محضة، لا علاقة لها بأيّ بعدٍ غيبي أو تشريعي»[٣]؛ بمعنى أنها تختزل النصّ القرآني في بُعده الأدبي الجمالي دون النظر إلى أبعاده الغيبية العقدية والتشريعية العملية؛ وعليه فإنّ المناهج اللسانية من منظور علواش تبقى «قاصرة في الإحاطة بخفايا هذا النصّ المعجز، ومن ثم كان إسقاطها في ساحة التأويل القرآني على علّاتها وخلفياتها مدخلًا إلى المماثلة بين النصّ القرآني والنصّ البشري، مع أن الفوارق بينهما واضحة»[٤].

(١) السقوط الحداثي؛ نقد المنهج في التعامل مع النص القرآني، محمد علواش، ط١ (إربد: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ٢٠١٩)، ص١٩١.

(٢) السقوط الحداثي؛ نقد المنهج في التعامل مع النص القرآني، محمد علواش، ص١٩١.

(٣) السقوط الحداثي؛ نقد المنهج في التعامل مع النص القرآني، محمد علواش، ص١٩١.

(٤) السقوط الحداثي؛ نقد المنهج في التعامل مع النص القرآني، محمد علواش، ص١٩١.

المطلب الثاني: الموافقون على توظيف اللسانيات في تفسير وقراءة النص القرآني:

لعلّ ما يعطي نوعًا من المصداقية والمشروعية للسانيات وتوظيفها في تأويل النصّ القرآني برأي المجيزين، هو: ما يطرحه (سؤال المراجعة والتجديد) من حتمية تجديد آليات التعامل مع النصّ القرآني، وما يحوم حوله من تراث تفسيري تنظيرًا وممارسة. من هذا المنطلق فالسؤال الذي شغل بال هؤلاء ليس هو: ما مدى مشروعية توظيف اللسانيات في فهم النصّ الديني؟ لكن السؤال الطبيعي هو: هل يقبل تراثنا الإسلامي بصفة عامة وتراثنا التفسيري بصفة خاصّة مضمونًا ومنهجًا؛ المراجعة. وبالتالي مدى إمكانية تجاوز جملة من الجهود والمناهج التفسيرية انطلاقًا من كشف العلاقة بين الوحي المطلق والتراث النسبي المتغير؛ أي ما يصطلح عليه الأستاذ أحمد عبادي بقضية الثابت والمتحول. الثابت الذي يجب البناء عليه والمتغير الذي يدخل في دائرة النسبي، ويجب تجاوزه بالاستفادة من معطيات منهجية جديدة متى ما أمكن استخدامها استخدامًا سليمًا لا شائبة فيه. فإذا كان المفسِّرون الأوائل قد توصّلوا إلى أفهام انطلاقًا من وضعهم لمجموعة من الأصول التي استقرؤوها من حوارهم مع النصّ المؤسّس، ومن مكتسباتهم المعرفية آنذاك كاللغة والشِّعْر. فما المانع اليوم من استئناف هذه الحوارية مجدّدًا بالاستعانة بأدوات معرفية اليوم إذا ثبت سلامتها وإيجابيتها في الدرس القرآني خاصّة كما في العلوم الإسلامية بشكل عام، فهذه العلوم؛ «في فترة تأسيسها كانت عبارة عن حوار مع الوحي (النص

المؤسّس) للاتصال الوثيق والمبدئي معه، وهذا الحوار كان يعطي بالفعل القابلية لاكتشاف مجموعة من الآفاق، ويكون ذلك استنادًا على استثمار المعطيات الموجودة (...)؛ مما جعل هذا الحوار في الفترة الأولى يولد مجموعة من المعارف، ولكن حين كفّ الحوار، بقِينا منحسرين فيما أنجز خلال تلك الفترات المضيئة الأولى، دون البناء على مكتسباتها، والقيام بما علينا نحن أيضًا من الواجب إزاء الوحي المبارك، وإزاء متطلبات واقعنا»[(١)].

وعلى هذا الأساس اضطلعت نخبة من العلماء والمفكّرين المعاصرين بالدعوة إلى مراجعة التراث الإسلامي، فنجد الدكتور طه جابر العلواني يدعو إلى تأسيس علم المراجعات في التراث الإسلامي، قائلا: «إنّ علم المراجعات جدير بأن نعمل على إرساء مبادئه وقواعده؛ ليأخذ شكله العلمي الدقيق المتميز (...)؛ ويصبح بذلك علمًا يتخذ من العلوم والمعارف النقلية، موضوعًا وميدانًا لبحثه ودراسته، فيعمل على دراسة وتحليل النظم والأنساق المعرفية التي تكوّنت هذه المعارف في إطارها، ومراجعة نظرياتها المعرفية ومصادرها ونماذجها ومناهجها وفلسفتها وتاريخها وآثارها ونتائج تفاعلها مع الإنسان والكون والحياة»[(٢)]. من هذا المنطلق يمكن الحديث عن اللسانيات كعلم

(١) حوار مع د/ أحمد عبادي، مجلة الإحياء، ع٢٩، ص٧٨.

(٢) نحو تأسيس علم مراجعات التراث الإسلامي، طه جابر العلواني، مجلة الإحياء، ع٢٩، ص٤٣ وما بعدها، بتصرف.

يدخل في إطار فقه مراجعة التراث التفسيري؛ وذلك أنّ القرآن صالح لكلّ زمان ومكان، وهذه الصلاحية والراهنية تقتضي أن يبحث ويكشف مفسرو كلّ عصر انطلاقًا من معطياتهم المعرفية فحوى الخطاب القرآني؛ لأن «الإيمان بالقرآن وحيًا مطلقًا لا يلغي التسليم به نصًّا نسبيًّا متعينًا في اللسان العربي بمواصفاته الأسلوبية وتشكّله التاريخي»[(١)]. بمعنى أنّ تعامل المفسِّر مع النصّ القرآني يكون نسبيًّا لاعتماده أدوات منهجية وضعية ومُحايثة لواقعه التاريخي واللغوي؛ لذلك ينتقد مصطفى تاج الدين صبغ الاجتهادات التفسيرية القديمة بالإطلاق؛ «أي: تحويل الإنساني النسبي إلى إلهي مطلق، عن طريق الادعاء بإمكانية العثور على مقصد صاحب النصّ»[(٢)]. فلا يعدو في نظره أن تكون هذه الجهود التفسيرية نسبية تتم بواسطة «آليات تأويلية نسبية مشروطة بالزمان والمكان»[(٣)]. وهذا ما يذهب إليه عبد الرحمن الحاج، فإن كان أبدى ملاحظاته المتحفّظة إزاء (اللسانيات) بسبب التوظيف الأيدلوجي لهذا العلم، إلا إنه رغم ذلك لم يرفضها جملةً وتفصيلًا، على اعتبار أن الواقع التاريخي يثبت «أن المناهج التي اعتمدت في تفسير القرآن حتى الآن في الإطار الإسلامي إلى ما قبل المدرسة

(١) التحليل اللساني وعالمية القيم الدينية، مصطفى تاج الدين، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، ع:٣٢، ٣٣، ص١٧٥.

(٢) التحليل اللساني وعالمية القيم الدينية، مصطفى تاج الدين، ص١٧٥.

(٣) التحليل اللساني وعالمية القيم الدينية، مصطفى تاج الدين، ص١٧٥.

الإصلاحية وعصر النهضة نهاية القرن التاسع عشر لم تعد تنتج من التفسير إلّا تكرارًا لما قيل في القرون الستة الهجرية الأولى، وتتوقف الفروقات على نكاتٍ بلاغية ولغوية تقريبًا، ولم تعد هذه التفسيرات تلبّي التطلّعات والتساؤلات التي يطرحها الإنسان المعاصر؛ لهذا السبب برزت الحاجة لابتكار مناهج في التفسير»[(١)].

وقد استعرض الباحثان آلاء سامي الرحماني ومحمد خازر المجالي مجموعةً من النماذج التي وَظّفت اللسانيات في قراءة النصّ القرآني؛ نقدًا لبعض أوجه قصورها، وتثمينًا لبعض مكتسباتها وأهميتها في دراسة القرآن مع احترام خصائصه؛ مما «يؤكّد إمكانية الاستفادة من البحث اللساني في تطوير الدراسات القرآنية بشرط وجود علماء عالمين بضوابط التفسير وعلومه، وباللسانيات وتطوراتها»[(٢)].

(١) ما الحاجة إلى اللسانيات، عبد الرحمن الحاج، جريدة الحياة اللندنية (لندن، الطبعة الدولية)، عدد: ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٦م.

(٢) اللسانيات وتطبيقاتها على القرآن الكريم (دراسة نقدية)، آلاء سامي الرحماني، محمد خازر المجالي، مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية، المجلد ٢٩، العدد ٢، ٢٠٢١، ص٤٨٤.

المبحث الثاني: توظيف اللسانيات في التفسير؛ مناقشة وتحرير:

المطلب الأول: في مشروعية توظيف المنهج اللساني في تفسير القرآن الكريم:

لقد بدأت المناهج الغربية بما فيها اللسانيات تتسرّب مع نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات إلى الدرس القرآني، بعدما كان اشتغالها منصبًّا أساسًا على النصّ الأدبي؛ «فكان لنا أن نرى عام ١٩٧٩ (العالمية الإسلامية الثانية) لأبي القاسم حاج حمد، والتي اعتمد فيها على مزيج من المقولات اللسانية والفلسفية، ربما لأول مرة. وفي الثمانينيات ظهرت محاولة أركون في (قراءة التراث الإسلامي)، وتأويل النصّ الديني، ويعتبر أركون أكثر مَن توسّعَ في استخدام المناهج الحديثة وخصوصًا اللسانية، وحسن حنفي الذي حاول أن يؤسّس لتفسير معاصر اعتمادًا على معطيات العصر المنهجية، ثم محمد شحرور في (الكتاب والقرآن؛ قراءة معاصرة) الذي اعتمد فيه على خليط من البنيوية والتاريخية، ونصر حامد أبو زيد الذي طرح في (مفهوم النصّ) منهجه القائم على التأويلية من خلال نقد تراث علوم القرآن»[(١)].

إذن، فالغلبة كانت لدراسات حداثية وَظّفت اللسانيات توظيفًا أيدلوجيًّا -بغض النظر عن الاختلافات القائمة بينها-، هدفت في مجملها إلى علمنة

(١) ظاهرة القراءة المعاصرة للقرآن وأيدلوجيا الحداثة، عبد الرحمن الحاج، مجلة التسامح، ع١، ص٢٢٨.

المقدس بتعبير الأستاذ مصطفى تاج الدين، «أي: تحويل الإلهي المطلق إلى الإنساني النسبي (...) وهنا تتم التضحية بمقصدية صاحب النصّ لصالح مقاصد القارئ التي تتحوّل إلى حقيقة ثابتة في النصّ المؤول»[(١)]؛ لهذا صنّفنا توظيف مصطفى تاج الدين للسانيات في قراءة النصّ القرآني -كما سيأتي لاحقًا- في إطار التوظيف الموضوعي، من منطلق رفضه لهذه القراءات الحداثية التي غيّبَت قصدية القرآن الكريم، والذهول عن المطلق والثابت فيه؛ لذلك نراه يؤصل في مقالة أخرى -في مجلة إسلامية المعرفة في إطار حديثه عن مدارس التأويل- لقاعدة منهجية مهمّة ضابطة لعملية تفسير النصّ القرآني، مفادها أنّ: «كلّ تأويل تَعارَض كُلًّا أو جزءًا مع مقصدٍ من مقاصد الشريعة فهو تأويل فاسد كُلًّا أو جزءًا»[(٢)]؛ وبناء على هذه القاعدة المنهجية يمكن القول إنّ استثمارَ العلوم الإنسانية بصفة عامة واللسانيات بوجه خاصّ؛ مشروعٌ ما لم يتصادم مع مقاصد الشريعة والثوابت القطعية للدين وقواعد اللغة العربية، وعليه نُلفِي أن التحفظ على المنهج اللساني في فهم فحوى خطاب الحقّ تعالى كما ورد عند الرافضين يمكن ربطه برفضهم لنوع مخصوص من التوظيف، الذي يمكن تسميته بالتوظيف الأيدلوجي؛ بما يعني أنهم لا يرفضون توظيف الأدوات

(١) التحليل اللساني وعالمية القيم الدينية، مصطفى تاج الدين، ص١٧٥.

(٢) النص القرآني ومشكل التأويل، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ع١٤، ص٢٦.

اللسانية في تفسير القرآن الكريم بشكلٍ مطلق. في هذا الصدد يشير الدكتور أحمد نصري[*] -بعد نقده للفكر الأركوني الذي تبنّى التحليل اللساني البنيوي في قراءته للقرآن الكريم- إلى أنه «لا بأس من الاستفادة من هذه المناهج والإجراءات العلمية الحديثة لتقريب المعنى إلى الأذهان ولكن بتحفّظ شديد»[1].

يمكن القول إنّ توظيف هذا المنهج في الدراسات القرآنية قد يفضي إلى نتائج مؤكّدة لما ثبت في حقل التفسير، ويفتح المجال لقراءات متجدّدة للخطاب القرآني، متّسقة مع أصول المعرفة الإسلامية.

لكن هذا لا يعني أنّ جميع من يعتمد على هذا المنهج قد أدت قراءته إلى تحرّي الدّقة والموضوعية؛ لذلك لا بد من توخّي الحذر عند التعاطي مع هذه القراءات، دون إغفال أنّ توظيف اللسانيات في تفسير القرآن الكريم يحوز شيئًا من المشروعية؛ وذلك بالنظر إلى الاجتهادات الموضوعية -كما سيأتي بيانها- التي حاولتْ قراءة النصّ القرآني بأدوات حديثة منقولة ولم تؤدّ إلى مخالفة نسق القرآن، لكن تحرزًا من أيّ تأويل متعسّف للقرآن لا بد من عرض هذه الأدوات

(*) أستاذ الاستشراق والدراسات القرآنية، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، المغرب.

(١) الخلفية الاستشراقية للقراءة المعاصرة للقرآن الكريم: محمد أركون نموذجًا، أحمد نصري، أعمال اليوم الدراسي حول القراءات المعاصرة للقرآن الكريم؛ رصد ونقد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، ط١، ٢٠١٢، ص١١٣.

والنظريات والمناهج على ميزان النقد العلمي، فكما يقول طه عبد الرحمن: «كلّ أمر منقول معترض عليه، حتى يثبت بالدليل صحته»[(١)]؛ ويروم هذا النقد الإثباتي بحسَب تعبير طه، إلى دفع آفة الإسقاط وتبيئة وتقريب هذه الأدوات المنقولة إلى المجال التداولي العربي الإسلامي؛ «حتى إنّ المنقول الذي تثبت صحة أدلته يصبح منزلة المأصول»[(٢)]، وعليه يمكن الاستئناس بالمنهج اللساني وخاصّة علم الدلالة الحديث -بحكم تعلّقه الشديد بتراثنا المعرفي الإسلامي كما تبيّن سلفًا، أكثر من النظريات اللسانية الأخرى- في تفسير النصّ القرآني إذا قامت الأدلة المُثبتة على سلامته الإجرائية؛ وذلك إذا لم تخالف أصلًا من أصول الدين (الجانب العقدي)، وقواعد اللغة العربية (الجانب اللغوي)، وأصول الشرع (الجانب المعرفي). بحيث يمكن أن يندرج هذا التفسير ضمن إطار التفسير بالرأي الذي أقرّه العلماء بشروطه المعروفة[(٣)]، لكن إذا خالف هذا التفسير اللساني التفسير بالمأثور مع استيفائه جميع الشروط التي تجعله محمودًا «لا مسوغ له إذا عارضه التفسير بالمأثور الذي ثبت لنا بالنصّ القطعي؛ لأن

(١) روح الحداثة، طه عبد الرحمن، ص١٣.

(٢) روح الحداثة، طه عبد الرحمن، ص١١- ١٢.

(٣) وهي النقل عن رسول الله ﷺ مع التحرز من الضعيف والموضوع، والأخذ بقول الصحابي، والأخذ بمطلق اللغة، الأخذ بما يقتضيه الكلام، ويدلّ عليه قانون الشرع. ينظر: مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ط١٧ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٨)، ص٢٩٢.

الرأي اجتهاد، ولا مجال للاجتهاد في مورد النصّ، أمّا إذا لم يكن تعارُض بين التفسير بالرأي والتفسير بالمأثور فكلّ منهما يؤيّد الآخر ويثبته، وذلك أكثر ما نجده في كتب التفسير...»[1].

بناءً على ما سبق، سنعرض في هذا الإطار نموذجين تطبيقيين لتوظيف اللسانيات في تفسير القرآن الكريم، أحدها قراءة أيدلوجية متحيزة والأخرى موضوعية؛ وذلك لكشف حدود ومنزلقات القراءة الأولى، وسلامة القراءة الثانية أو اقترابها من الصواب على الأقل.

(١) مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص٢٩٣.

المطلب الثاني: توظيف اللسانيات في تفسير القرآن الكريم بين الأيدلوجيا والموضوعية:

١ – التوظيف الأيدلوجي(*): محمد أركون أنموذجًا:

المقاربة الأركونية للنصّ الديني تتوسّل بمجموعة من الآليات المعرفية الحديثة، خاصّة اللسانيات البنيوية والسيميائيات، والتي وظّفها المفكّر الجزائري توظيفًا أيدلوجيًّا يهدف إلى الإجابة عن أسئلة وضعت لها إجابات مسبقة متأثرة بالمنهج الاستشراقي بكلّ خلفياته وشبهاته، ولا سيما المنهج التاريخاني الذي يحاول أنسنة النصّ القرآني ونفي الطابع الإلزامي المطلق فيه والذي لا يتغيّر بتغيّر الزمان والمكان. بحيث يعتبر «أنّ القرآن لا يقرّ حلولًا نهائية للمشاكل التي تعترض الوجود الإنساني، وإنما يعمل على بعث نظر الإنسان إلى الكون وإلى ذاته...»(١). وبالتالي التعامل مع القرآن الكريم على أساس أنه ظاهرة مفتوحة على التأويل اللامتناهي الذي لا يحده في فهم بشري «فهو ينصّ على التأويل ولا يمكن اكتناهه إلا بالتأويل فهو نصّ التأويل بامتياز»(٢)، انطلاقًا من هذا المعطى التاريخاني ينادي أركون باعتماد المنهج

(*) يمكن أن نستبدل مصطلح أيدلوجية بمصطلح آخر نحته طه عبد الرحمن، وسماه بـ«الفكرانية». ينظر: تجديد المنهج في تقويم التراث، ط٣ (بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٧)، هامش ص٢٤ – ٢٥.

(١) الخلفية الاستشراقية للقراءة المعاصرة للقرآن الكريم: محمد أركون نموذجًا، أحمد نصري، ص٩١.

(2) Arkoun Mohamed, Lectures du Coran , Maisonneuve- Larose 1982,P 46.

اللساني السيمائي في تحليل وكشف معاني ودلالات النصّ القرآني، فإذا كان المسلمون درسوا القرآن في جانبه البياني اعتمادًا على علم البلاغة فكان نتائج هذا الدرس أن فرضوا «العقيدة الشهيرة بالإعجاز البلاغي في القرآن»؛ فمن حقّ مَن جاء بعدهم في ظلّ التطوّر المعرفي في هذا العصر أن يدرسوا القرآن الكريم من خلال مناهج متعدّدة، من بينها تطبيق مناهج البحث في اللسانيات على النصّ القرآني. مؤكّدًا في الوقت نفسه -ليصبغ على طرحه الجريء سربال القداسة- «أنه ليس في هذا الموقف من المعرفة أيّ شذوذ؛ إِذْ إنّ مفسرًا قديمًا مثل الرازي (القرن١٢ والقرن١٣م) كان قد قام بقراءة تاريخية للنصّ القرآني، مستعملًا في ذلك كلّ أدوات عصره كالهيئة (الفلَك) والطب والعلوم الطبيعية وفقه اللغة والتاريخ كما كانت مطروحة في ذلك الوقت. وكان نتاج ذلك تفسيرًا لا يمكن إنكار قيمته»[(١)].

إجمالًا يمكن القول إنّ توظيف اللسانيات من قبل محمد أركون ليس توظيفًا بريئًا، بل هو توظيف مرتبط أيّما ارتباط بخلفيات الرجل الفكرية، فهو يهدف من وراء ذلك إلى ما يأتي: «أولًا: ...إسقاط الربانية عن الوحي، وذلك عن طريق رفض جميع ما أُلّف عن نظرية الإعجاز مما يعني في النهاية اعتبار القرآن نصًّا أدبيًّا لا يختلف عن كتابات البشر، ليبقى الهدف من قراءته الجديدة

(١) الإنسان والقرآن وجهًا لوجه، احميدة النيفر (الدار البيضاء: دار الفنك، ١٩٩٧)، ص٩٦.

للقرآن رفع قدسية النصّ القرآني، وإبراز أسطوريته ولا عقلانيته»[١]، والهدف الثاني من توظيفه السيمائيات يتمحور حول: «تمييع النصّ القرآني ودلالته فلا يعني شيئًا محددًا بذاته، وحسَب تصور أركون فهذا هو أيسر طريق لإسقاط التشريعات التي يرى أنها من اختلاق المجتمعات فقط»[٢]. وبالرغم من كونه ما فتئ يؤكد -وغيره- أنّ قدسية النصّ القرآني إنما تستمد من خلال فاعلية الإنسان وقراءته لهذا النصّ بحسَب معارفه ونظرياته، أي: لا تظهر إلا عبر الدنيوي، متمثلًا في اللغة المخصوصة ومقتضياتها، واستشهاده في ذلك بكون «المفسِّرين القدامى تعاملوا مع النصّ إلى حدٍّ كبيرٍ على هذا الأساس نفسِه ومع ذلك لم يعودوا مستهينين بالصفة المتعالية للنصّ. فقد اعتبروه خطابًا عربيًّا قاسوه على كلام العرب فاحتجّوا بالأشعار لبيان معانيه وفهم ما لم يفهم منه»[٣]. استنادًا على هذا الاعتبار يتضح -كما يعتبر رواد القراءة الحداثية[*] بمن فيهم (أركون)- أنّ الوحي إنما هو تعبير عن إنسانية العرب وزمنيتهم باعتباره

(١) الخلفية الاستشراقية للقراءة المعاصرة للقرآن الكريم: محمد أركون نموذجًا، أحمد نصري، ص٩٩ وما بعدها.

(٢) الخلفية الاستشراقية للقراءة المعاصرة للقرآن الكريم: محمد أركون نموذجًا، أحمد نصري، ص١٠٠.

(٣) الإنسان والقرآن وجهًا لوجه، احميدة النيفر، ص٩٣.

(*) أبرز هؤلاء فضلًا عن أركون؛ نصر حامد أبو زيد، محمد شحرور، عبد المجيد الشرفي، حسن حنفي.

«تجلَّى باللغة العربية على مقتضى لسان العرب وحسَب ترتيبهم لوجوه الكلام وطريقتهم في إنتاج المعنى»[١]. لكنه (أركون) وقع في خندق الأدلجة، فهو وإن ادّعى العلمية والموضوعية[٢] يبقى ضمن تيار معروف بعلمنته الشاملة والشرسة، وتحيّزه للحداثة الغربية بكلّ تجلياتها الإيجابية والسلبية؛ لذلك فإنه يتبنّى «نزعة تغريبية علمانية حداثية تجعل من تجربة الغرب -انطلاقًا من القرن ١٦ على كلّ المستويات- معيارًا يقاس عليه، ونموذجًا أمثل يُحتذى به ويُتّبع»[٣]. ولكي تتضح مقاربة أركون للنصّ القرآني استنادًا إلى علم اللسانيات سنعرض لقراءته[*] لسورة الفاتحة على ضوء المنهج السيميائي[*]. بحيث فسّرها على الشكل الآتي:

(١) الإنسان والقرآن وجهًا لوجه، احميدة النيفر، ص٩٣.

(٢) النيفر في كتابه (الإنسان والقرآن وجهًا لوجه) صنّفه ضمن مدرسة: القراءة التأويلية؛ فتوحات المعرفة، ولم يصنفه ضمن التيار الأيدلوجي.

(٣) الحداثة في التداول الثقافي العربي الإسلامي، سعيد شبار (الرباط: منشورات الزمن، ٢٠٠٢)، ع٣٦، ص٥٤.

(*) مصطلح القراءة له معنيان: معنى مرادف للتفسير، ومعنى آخر يقابل التفسير بحيث يتجاوزه إلى التأويل الحر الذي لا ضابط له.

(*) السيميائيات هو علم دلالة العلامات الرمزية.

الدلالات	العبارات
الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم	علم الأصول الأنطلوجية
ملك يوم الدين	علم الآخرة: كالبعث والحساب
إيّاك نعبد	العادات، الطقوس، الشعائر
اهدنا الصراط المستقيم	الأخلاق
الذين أنعمت عليهم	علم النبوة
غير المغضوب عليهم ولا الضالين	التاريخ الروحي للبشرية: رمزية الشر، القصص المتعلقة بالشعوب العاصية

فالملاحظ إذن أنّ أركون من خلال تحليله اللساني قد فسّر سورة الفاتحة أو بالأحرى قرأها انطلاقًا من المنهج اللساني السيميائي الذي يفتح النصّ القرآني على دلالات رمزية لا متناهية، ومتجدّدة تجدد المعرفة البشرية، بخلاف ما هو سائد في مجمل التفاسير التراثية التي لا تخلو من قواعد وأصول ومرتكزات ثابتة؛ لأنه يرى أنّ النصّ مقدّس والتأويل حُرّ، وبناءً عليه فدلالة المعنى القرآني منفتحة على كافة الدلالات الرمزية، بينما التفاسير الكلاسيكية -بنظره- تعطي الأولوية لبيان الحمولات التشريعية والطقوسية لسورة الفاتحة، لكن هذه الدلالات -المعهودة بنظره- لا تستجيب وطبيعة سورة الفاتحة؛ بحيث «أن مفردات الفاتحة وبناها النحوية عامة جدًّا، ومنفتحة جدًّا على كافة

ممكنات المعنى. إلى درجة أنهما تمارسان دورهما كحقل رمزي تنبثق منه وتسقط عليه مختلف أنواع التحديدات والمعاني»[(١)].

يتضح إذن أنّ تطبيق أركون لهذا المنهج قد ارتبط بتحيزات الرجل الفكرية للاستشراق من جهة، وللرؤية العلمانية من جهة ثانية؛ لذلك جاءت نتائج قراءته مخالفة للرؤية المعرفية الإسلامية، ولم يكن توظيفه لهذا المنهج بشكل إجرائي إنْ سلّمْنا جدلًا برصانة هذه المناهج في ظِلّ صعوبةِ تلمُّسِ حدود الذاتي والموضوعي في المناهج الحديثة بصفة عامة والمنهج اللساني بتفرّعاته المختلفة على وجه الخصوص، ولا سيما المنهج السيميائي الذي يحمل في طيّاته نزوعًا أيدلوجيًّا طافحًا، بحيث يفتح النصّ على دلالات لا متناهية وغير منضبطة لأيّ شروط إبستمولوجية؛ إِذْ إن السيميائيات «مطاردة للمعنى لا ترحم (...)، ويمتد طموح الدرس السيميائي بوصفه عِلمًا يقارب الأنساق الهلامية -في نظر أصحابه- إلى تخليص حقول المعرفة الإنسانية من القيود الميتافيزيقية التي تكبّلها»[(٢)]، وقد انطلق محمد أركون من هدف مسبق يتغيّا الوصول إليه بتوظيفه لهذا المنهج اللساني السيميائي، وهو إثبات تاريخية النصّ القرآني ونفي

(١) الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، مصطفى كيحل، أطروحة دكتوراه، جامعة قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٧/ ٢٠٠٨، ص٣٢٧.

(٢) الظاهرة القرآنية عند محمد أركون؛ تحليل ونقد، أحمد بوعود (الرباط: منشورات الزمن، سلسلة شرفات، ع٢٨، ٢٠١٠)، ص١٦٠.

صبغة الإعجاز عنه، ومن ثم مماثلته بالنصوص البشرية المحايثة للزمان والمكان[١].

وعليه، فإن هذا المثال الذي استعرضناه وقع في آفتين:

- **آفة القصور المنهجي**؛ بالاعتماد على منهج لساني وضعي، لم يخضع للنقد الكافي لإثبات صلاحيته في تفسير وقراءة النصّ القرآني المعجز، ويتضح هذا الأمر بجلاء في إصدار أركون لأحكام جاهزة ابتداءً دون أن يبرهن عليها، فقد عجز عن «تنزيل النظريات وتطبيقها، بل إنه يلوك الكلام في النظري ويكثر من الاستشهادات حتى يخرج عن المقصود الذي من أجله تعاقد مع القارئ»[٢].

- أمّا الآفة الثانية، فهي **آفة التحيز للمركزية الغربية**؛ من خلال تبنّيه لخلفيات ومنطلقات المستشرقين بما في ذلك فكرة تاريخية النصّ القرآني التي يروم تأكيدها بغرض نزع طابع القداسة عن النصّ القرآني؛ لذلك نلفي أنه «يتعامل مع النص القرآني كما يتعامل مع النصّ البشري، فلا وجود لعبارات التعظيم، ولا اعتبار لقضية الإيمان عنده»[٣].

---

(١) الظاهرة القرآنية عند محمد أركون؛ تحليل ونقد، أحمد بوعود، ص١٦٠- ١٦١.

(٢) الظاهرة القرآنية عند محمد أركون؛ تحليل ونقد، أحمد بوعود، ص٢٠٣.

(٣) الظاهرة القرآنية عند محمد أركون؛ تحليل ونقد، أحمد بوعود، ص٢٠٣.

لكن نقدنا لهذه القراءة الأيدلوجية، لا يعني أن جميع المناهج اللسانية غير موضوعية، بل يبقى المنهج اللساني الأقرب -في تقديرنا- للموضوعية العلمية هو المنهج اللساني الدلالي، الذي له شواهد تاريخية في التراث العربي الإسلامي كما أسلفنا في المدخل التمهيدي، وهو الذي قد يؤدّي إلى تفسير موضوعي ينطلق من مقتضيات مجالنا التداولي العربي الإسلامي لغة ومعرفة وعقيدة، ومن بين هذه القراءات نقدم قراءتين لباحثين (ياباني وعربي)، ثم نبرز إلى أيّ حد يمكن الوثوق في هاتين القراءتين (خصوصًا قراءة إيزوتسو)، بالقياس إلى أصول التفسير ونسقه الداخلي.

٢- التوظيف الموضوعي؛ إيزوتسو، مصطفى تاج الدين نموذجًا:

١- توشيهيكو إيزوتسو:

قدّم الباحث الياباني توشيهيكو إيزوتسو (ت:١٤١٣هـ)، دراسة لسانية قرآنية بعنوان: «الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم»[(١)]، وقد قام أيضًا بمجموعة من الدراسات القرآنية الأخرى، من بينها ترجمتُه القرآنَ الكريمَ إلى اللغة اليابانية، فضلًا عن كتابه باللغة الإنجليزية: «بنية المصطلحات الأخلاقية في القرآن» الصادر سنة ١٩٥٠ الذي يعدّ أول محاولة تقارب القرآن من المدخل اللساني، بالإضافة إلى دراسات قرآنية وفكرية أخرى، مثل: تاريخ

(١) صادرة عن المنظمة العربية للترجمة، ترجمة وتقديم: محمد الجهاد، لبنان، ط١، ٢٠٠٧.

الفكر الإسلامي، الفلسفة الصوفية، الثقافة الإسلامية، الوعي والذات، الكون وأضداد الكون. يقول عبد الرحمن حللي بخصوص هذه الدراسات: «أنها بحوث جيدة وموضوعية حول القرآن الكريم جديرة بالتأمّل والقراءة من المتخصصين في الدراسة القرآنية»[١]. كما كتب مصطفى تاج الدين دراسة حول كتابه: «الله والإنسان في القرآن» موسومة بـ: «النصّ القرآني والمنهج اللساني الحديث: قراءة في كتاب الله والإنسان للمستشرق الياباني توشيهيكو إيزوتسو»[٢]، ثمّن فيها هذه المحاولة، التي وظّفت علم الدلالة الحديث لفهم بعض المفاهيم القرآنية، لكنه يعاتبه قائلًا: «لقد برع الرجل في التصنيف ولكنه بالغ نوعًا ما في الحديث عن طموحات لم ينجزها مع كامل الأسف؛ ولهذا جاء الكتاب مكتنزًا بعبارات: سنرى، سنفعل، وسندرس...»[٣].

أمّا في ما يخصّ كتابه: «الله والإنسان في القرآن: علم دراسة دلالة الرؤية القرآنية للعالم»، فقد حاز على رضا بعض الباحثين في الدراسات القرآنية على

(١) استخدام علم الدلالة في فهم القرآن: قراءة في تجربة الياباني توشيهيكو إيزوتسو، عبد الرحمن حللي، ص١.

(٢) مجلة التسامح، ع١٧، ص١٨٢.

(٣) النص القرآني والمنهج اللساني الحديث: قراءة في كتاب الله والإنسان للمستشرق الياباني توشيهيكو إيزوتسو، مصطفى تاج الدين، مجلة التسامح، ع١٧، ص١٨٦.

غرار الباحثين: عبد الرحمن حللي، ومصطفى تاج الدين(*)، ومن بين هؤلاء مدير الملتقى الفكري والأستاذ بالجامعة الإسلامية العالمية الماليزية، الباحث السوري عبد الرحمن الحاج؛ الذي وصف كتابه أو بالأحرى قراءته المتوسلة بالنظريات اللسانية الحديثة على أنها توافق التصور الإسلامي، بحيث: «خلَص إلى تصور لأكثر من ١٠٣ مفاهيم عقدية في القرآن تكاد تطابق ما عليه جمهور المسلمين، حتى ليبدو أنّ كاتب هذه الدراسة هو واحد من المسلمين»(١).

وهذه الموضوعية التي وسمت قراءته تلك، هي ما أوجبت علينا وضعه ضمن خانة التوظيف الموضوعي، مما يثبت أنّ «الدراسة اللسانية للقرآن ليست دائمًا ضد القرآن على النحو الذي سنشهده في التطبيقات العربية للسانيات على القرآن»(٢)، وهذه الموضوعية العالية، والحياد في توظيف هذا العلم، إنما يرجع أساسًا إلى خلفيات الرجل البعيدة عن التعصّب، على عكس معظم الدراسات الاستشراقية الغربية الطافحة بعقدة نفسية استئصالية تجاه المسلمين، بل إنّ مجمل الدراسات اليابانية ترفض التخندق في بوتقة الدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم، لعدة أسباب، منها: «مخالفة الدراسات الاستشراقية الغربية التي

(*) عميد كلية الآداب، جامعة الحصن بالإمارات.

(١) المناهج المعاصرة في تفسير القرآن وتأويله، عبد الرحمن الحاج.

(٢) المناهج المعاصرة في تفسير القرآن وتأويله، عبد الرحمن الحاج.

تميّزت بالأدلجة واللاموضوعية، والتحيّز للمنظور الغربي، وثانيها: منهج إيزوتسو العلمي الذي يعتمد التجريب والاستقراء، لتحليل البنية الأساسية للحقل الدلالي للتعابير القرآنية، وثالثها: احترامه للقرآن؛ بحيث أثبت في غير موضع احترامه وإجلاله للقرآن وإعجابه بلغته وإحكام آياته»[(١)]. هذا الاحترام ينبع أساسًا من تضلّعه باللغة العربية، فقد درسها لمدة سنتين في البلاد العربية. فهو لذلك يسجل احترامه للغة العربية وتقديره لها، مما مكّنه من الاقتراب من الموضوعية أكثر فأكثر، بخلاف القراءات الأيدلوجية التي تغيب فيها هذه الشروط العلمية الموضوعية.

دراسة إيزوتسو: مقاربة منهجية:

يهدف الكاتب في مؤلّفه إلى دراسة المفاهيم القرآنية المفتاحية التي تكشف عن الرؤية العالمية للقرآن أو الرؤية القرآنية للكون. وهي مفاهيم عقدية كثيرة، نذكر منها: الله، الإنسان، الأمة (المجتمع المسلم)، الغيب، الشهادة، الدنيا، الآخرة، المفاهيم الأخروية، المصير الإنساني، آيات الله، الهداية الإلهية، العبادة، كلام الله، الوحي، الدعاء، الإسلام، الحلم، الطاعة، إله الرحمة، إله

(١) استخدام علم الدلالة في فهم القرآن: قراءة في تجربة الياباني توشيهيكو إيزوتسو، عبد الرحمن حللي، بتصرف شديد، ص٤.

العقاب، الوعد، الوعيد...[1]. ويتناول هذه المفاهيم وَفق منهج يعتمد على مرتكزات علم الدلالة الحديث، أو قُل: علم دلالة القرآن -كما يسميه- متمثّلة في: شبكة المفهومات في القرآن، التحوّل الدلالي من خلال السياق القرآني، المعنى الوضعي والمعني السياقي، التعابير المفتاحية، الحقول الدلالية، ثم الكلمات الصميمة. معتبرًا أنه سيحاول «قراءة القرآن من دون مفاهيم مسبقة»[2]، بمعنى أنه إذا ما اختلف أو اتّفق في بعض المفاهيم مع السائد في التصور الإسلامي، فهذا مردّه إلى منهج لساني محض.

وبصفة عامة فإنّ منهجه يقوم في دراسته لدلالة المصطلحات القرآنية على معنيين: «الأول هو المعنى المعجمي أو الأساسي أو المفهوم الضمني للكلمة...، وأمّا المعنى الثاني فهو المعنى العلائقي أو السياقي للكلمة، وذلك عندما توضع الكلمة ضمن نظام خاصّ وتأخذ مكانها مع كلمات أخرى، فتشحن بكثير من العناصر الدلالية الجديدة التي تنشأ من هذه الحالة الخاصة حتى إنّ السياق الجديد ليعدّل أحيانًا بشكلٍ تام المعنى الأساسي للكلمة فتفقد

(١) ينظر الفصل الثالث: البنية الأساسية للرؤية القرآنية للعالم، كتاب الله والإنسان في القرآن؛ حيث قدّم فيه ملاحظات تمهيدية لبعض هذه المفاهيم.

(٢) الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، توشيهيكو إيزوتسو، ترجمة: هلال الجهاد، ط١ (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٧)، ص١٢٦.

المعنى الأساسي للكلمة، وتشهد ولادة جديدة»[١]. انطلاقًا من هذا المعطى، أي التفريق بين الدلالة الأساسية والدلالة السياقية إدراكًا لهذا التحوّل اللغوي «يمكن الكشف عن الرؤية الكونية للقرآن»[٢]. وهذا هو الذي تصدى له إيزوتسو في مقاربته الدلالية للنصّ القرآني، ولكي تتضح هذه المقاربة اللسانية، نضرب المثال بالمفهومَيْن المركزيَّيْن اللذَيْن تناوَلَهما بالدرس والتحليل في كتابه الآنف الذِّكْر.

الله والإنسان:

يقول إيزوتسو محلّلًا مفهومي الله والإنسان في القرآن: «فإنّ من الواضح جدًّا أنّ العالم القرآني ذو مركزية إلهية -كما ذكرتُ أكثر من مرة-، إنّ الله يقوم في مركز عالم الوجود بالذّات. وكلّ الأشياء الأخرى إنسانية وغير إنسانية مخلوقات له، وإذًا فهي بحدّ ذاتها أدنى منزلة منه في تراتبية الوجود بصورة مطلقة، وبهذا المعنى لا يمكن أن يوجد شيءٌ مضادٌّ له»[٣]، فهو من خلال هذه الدراسة الدلالية لمفهومي: الله والإنسان؛ كشف بأنّ القرآن الكريم يحكمه حقل دلالي موجب خاصّ بالذات الإلهية، وحقل آخر سالب خاصّ بالإنسان،

(١) المفاهيم والمصطلحات القرآنية، عبد الرحمن حللي، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ع٣٥، (٢٠٠٤)، ص٧٢.

(٢) المفاهيم والمصطلحات القرآنية، عبد الرحمن حللي، ص٧٢.

(٣) الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، توشيهيكو إيزوتسو، ص١٢٦.

بخلاف التصوّر الجاهلي الذي كان ذا مركزية إنسانية. ثم يكشف أن الإنسان تحكمه علاقات أربع بالله تعالى: العلاقة الوجودية، باعتبار أنّ الله المصدر الجوهري للوجود الإنساني في مقابل الإنسان الممثل أو الخليفة الذي يدين لله، فهي علاقة المخلوق بالخالق. وعلاقة تواصلية؛ بحيث يدخل الإنسان في علاقة مع ربه، إمّا من الأعلى إلى الأدنى (الوحي)، أو من الأدنى إلى الأعلى (الدعاء). وعلاقة الرب - بالعبد؛ التي تستلزم وصف الربّ بكلّ المفاهيم المتعلّقة بجلاله وعظمته وقدرته المطلقة، كما تستلزم من جهة العبد مجموعة من المفاهيم تتضمّن الخضوع والتواضع والطاعة المطلقة. ثم علاقة أخلاقية قائمة على أساس التغاير بين صفات الله تعالى المطلقة وصفات البشر النسبية[(١)].

خلاصة القول: إنّ توظيف إيزوتسو لمجموعة من الأدوات الخاصة بعلم الدلالة لتحليل هذين المفهومين المركزيَّين في القرآن الكريم فضلًا عن باقي المفاهيم؛ كالحقول الدلالية، والتعابير المفتاحية (الله والإنسان)، والتحول السياقي للمفهوم القرآني (من الدلالة الوضعية إلى الدلالة القرآنية السياقية)؛ أدى إلى كشف الرؤية القرآنية الوجودية، ولا سيما علاقة الإنسان بالله تعالى من

(١) الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، توشيهيكو إيزوتسو، ص١٣١ وما بعدها.

منظور لساني بشكلٍ لا يختلف عن السائد في النسق المعرفي الإسلامي والرؤية القرآنية.

٢- مصطفى تاج الدين:

يمكن القول إنّ مصطفى تاج الدين يقسم مقالته -محلّ الدراسة- إلى قسمين يتحدّث في كِلا القسمين عن اللسانيات، وخاصّة عن فرع من اللسانيات هو: (علم الدلالة الحديث) تأصيلًا وتفعيلًا؛ تأصيلًا بالحديث عن مشروعية توظيف اللسانيات في فهم مراد الله تعالى، وتفعيلًا من خلال تطبيق بعض آليات علم الدلالة: مثل الحقول الدلالية، الدالّ والمدلول، الدلالة اللسانية، الدلالة الثقافية المعهودة على بعض المفاهيم الإسلامية أو القيم كما يسميها؛ قصد إثبات عالميتها وأنها لا تقع في دائرة الخصوصية الضيقة. فهو يهدف من خلال «بعض التحليلات اللسانية لبعض المفاهيم... المساهمة في صياغة القيم الإنسانية الإيجابية ومواجهة القيم الطائفية والمذهبية الضيقة من جهة، ومواجهة الجوانب السلبية في العولمة الثقافية المعاصرة»[(١)].

يقول موظفًا علم الدلالة: إنّ الوحي يقتضي وجود مستويَين (حقلين) دلاليَّين: الفَوق الأزلي المعصوم، والتّحت الزائل المعدوم. فكلمة الوحي

(١) التحليل اللساني وعالمية القيم الدينية، مصطفى تاج الدين، ص١٨٠.

تستدعي حقلًا دلاليًّا إيجابيًّا لازمًا: (الله، القرآن، العصمة، الحقّ). كما يستدعي حقلًا دلاليًّا سلبيًّا لازمًا: (الإنسان، الكلام، الخطأ، الباطل) يقع تحت الأول. ويكوِّن بذلك حقلين دلاليين متمايزين ومتباعدين: الحقل الأول مركزه (الله) والثاني (الإنسان)، لكنَّ الحقلين يلتقيان في عملية الفهم التي يباشرها الإنسان في رغبته الأكيدة والدائمة للتفاعل مع معاني الوحي، وذلك من خلال اللغة؛ «فاللغة تقوم بخلق علاقات متعددة بين المجال الدلالي لمفهوم الله والمجال الدلالي لمفهوم الإنسان؛ وبالتالي تعين المطلق (الوحي) في النسبي (اللغة). ويمثل الكاتب بذلك بأن كلمة (الله) حين تدخل في تركيب لغويّ ما، فإنها تنتقل من الوجود المطلق لله إلى التعين في الوجود المحدود للإنسان من خلال اللغة».

وبالنتيجة فإنّ «تعين الوحي وحصوله لا يمكن أن يحصل إلا عن طريق اللغة، وهي الأداة التي تمكننا من إدراك الجانب النسبي في القرآن»[1]. من هنا تأتي مشروعية تفسير كلام الله تعالى، من خلال اللسانيات؛ فمن جهة هي دراسة لغوية متقدّمة بمختلف مستوياتها الصوتية والصرفية والدلالية، أي أنها بشرية نسبية على غرار اللغة والبلاغة والشِّعْر، لكنها لا تهتم بدراسة المطلق الدلالة، بقدر ما تهتم بالظنِّي أي النسبي منه، «فالذين يَدْعُون إلى الاشتغال بالأدوات

(١) التحليل اللساني وعالمية القيم الدينية، مصطفى تاج الدين، ص١٧١.

اللسانية القديمة والحديثة في فهم القرآن ينظرون إلى الجانب النسبي منه»[١].

ومن جهة أخرى فالقرآن نزل بلسان العرب، مما «يجعله سائرًا على مهيع العرب في مخاطباتهم وأساليبهم فيجري عليه إِذَن ما يجري على الكلام النسبي من وضوح وغموض»[٢].

ليخلص الباحث في الأخير إلى أنّ خضوع كلام الله تعالى إلى نسبية الكلام البشري من غموض ومجاز يتيح «استثمار كلّ ما وصل إليه الكسب البشري من معارف لغوية وإنسانية وتطبيقها على النصّ القرآني دون خوف أو وجل من نزع القداسة كما يتخوّف المتخوّفون»[٣]. فاللسانيات لم تأتِ من فراغ، بل هي مُحصّلة تراكمات معرفية سابقة، أسهم فيها المسلمون أنفسهم، يقول الكاتب في مقالة أخرى، في مجلة التسامح العُمانية: «...المنهج اللساني المحض وأثره في تفسير القرآن الكريم أصيل في الممارسة التفسيرية التراثية، إنْ لم نَقُل إنّ التفسير اللغوي أول طريقة تفسيرية استعملها المتلقّي الأوّل للوحي من أجل استقطار دلالاته من جهة، ولغرض حلّ بعض الإشكالات الدلالية والتي كانت تشوش

(١) التحليل اللساني وعالمية القيم الدينية، مصطفى تاج الدين، ص١٧١.

(٢) التحليل اللساني وعالمية القيم الدينية، مصطفى تاج الدين، ص١٧١.

(٣) التحليل اللساني وعالمية القيم الدينية، مصطفى تاج الدين، ص١٧١.

على المتلقي الطبيعي للرسالة»[1]. إِذَن فإعمال علم الدلالة كحقل معرفي متعلّق بعلم اللغة العام في التفسير يمكن أن تكون نتائجه موضوعية إلى حدّ كبير، بشكل يتوافق مع قواعد اللغة والنسق القرآني، بحيث إنه يشتغل على الجانب الظنّي (النسبي) وليس الجانب القطعي (المطلق).

بعد ذلك يأتي الباحث مصطفى تاج الدين إلى تفعيل منطلقاته النظرية، من خلال بعض التحليلات اللسانية لبعض المفاهيم التي يروم من خلالها نقلها من دائرة التحيز والخصوصية الضيقة إلى دائرة الإنسانية والكونية -واصفًا محاولته للأمانة بالبسيطة- قائلًا: «...نجري بعض التحليلات اللسانية لبعض المفاهيم التي نريد منها المساهمة في صياغة القيم الإنسانية الإيجابية ومواجهة القيم الطائفية والمذهبية من جهة، ومواجهة الجوانب السلبية في العولمة الثقافية المعاصرة»[2]. وذلك وَفق منهج يروم دراسة هذه المفاهيم في إطارها اللغوي (الدلالة اللسانية) ومقارنة ذلك بالدلالة المعهودة لدى المسلمين (الدلالة التاريخية)؛ والدلالة اللسانية ستكون من وجهة نظره مُؤسّسة لفهم جديد

(١) النص القرآني والمنهج اللساني الحديث: قراءة في كتاب الله والإنسان للمستشرق الياباني توشيهيكو إيزوتسو، مصطفى تاج الدين.

(٢) التحليل اللساني وعالمية القيم الدينية، مصطفى تاج الدين، ص١٨٠.

متجاوز وليس متضادًّ بالضرورة مع الدلالة التاريخية، وسنكتفي في هذا الصدد بمقاربته لمفهوم القوامة.

القوامة:

ينطلق الكاتب من القول بأن بعض الاجتهادات التفسيرية التراثية قد غلبت الدلالة التاريخية الثقافية على الدلالة اللسانية المعجمية، ويمثّل لذلك بمفهوم (القوامة) منتقدًا تفسير ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا المفهوم الذي فسّره انطلاقًا من نظرة دونية للمرأة مرتبطة بسياق ثقافي واجتماعي معين -بحسَب رأي الكاتب، وهو تفسير خالَف فيه الرؤية القرآنية، قائلًا (أي ابن كثير): «﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: الرجل قيِّم على المرأة، أي: هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدِّبها إذا اعوجَّت. ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي: لأنّ الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة، ولهذا كانت النبوّة مختصّة بالرجال؛ وكذلك المُلك الأعظم لقوله ﷺ: (لن يُفلِح قومٌ ولَّو أمْرَهُم امرأةً)[1]، وكذلك منصب القضاء وغير ذلك. ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، أي: من المهور والنفقات والكُلَف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وسنّة نبيه ﷺ، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، وله الفضل عليها والإفضال»[2]. بينما التفسير الأقرب

(١) رواه البخاري.

(٢) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، (دار التقوى)، (١/ ٥٣٢).

للصواب -بحسَب مصطفى تاج الدين- هو التفسير الذي يتساوق مع التحليل اللساني، والذي يختلف في مقاربته لمفهوم القوامة على ما جاء به الحافظ ابن كثير، الذي يرى الكاتب أنه حمّل القرآن ما لا يحتمل. ويسوق هنا -صاحب المقالة- ما أورده ابن منظور في (لسان العرب)، بحيث القوامة تأتي لتفيد أربعة معان، وهي:

الملازمة: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾، أي: ملازمًا. والثبات والتمسك، مثل القائم على حدود الله. والمَون أو الإنفاق، قال صاحب اللسان: قام الرجل على المرأة، أي: مانَها وأنفق عليها، ومنه اسم الجلالة القيوم؛ أي: الرازق. ثم المعنى الأخير وهو الخِدمة: قام الرجل على ضيفه؛ أي: خَدَمَه. وانطلاقًا من هذه الدلالات اللسانية لمفهوم القوامة يحاول مصطفى تاج الدين تفسير آية القوامة، قائلًا: «فالرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض في الرزق وبما أنفقوا؛ أيْ أنهم يمونون نساءهم ويخدمونهن ويلازمونهن ويحافظون عليهن ولا يضيعوهن، وإن اقتضى الأمر نوعًا من الحزم حين الخلاف، فمردّه لكلّ رجل وطريقة تعامله مع زوجته، ولا تحتمل القوامة ما ذهب إليه ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن تسلّطٍ وتأديب، ولا أجده قد أفرط في مخالفة القرآن إلا حين ذهب إلى أن الرجل أفضل من المرأة في ذاته؛ أي: لغير سبب»[1].

(١) التحليل اللساني وعالمية القيم الدينية، مصطفى تاج الدين، ص١٨٣.

خاتمة البحث:

يتضح إذن بعد هذه الدراسة مجموعة من الخلاصات المحورية، نستعرضها على شكلِ إشارات سريعة:

- أنّ اللسانيات علم منبثق من الغرب؛ تشكّل كعلم مستقلّ بذاته يدرس اللغة من خلال مستوياتها المختلفة، لكن استقلّت هذه المستويات فيما بعد ليشكِّلَ كلُّ فرع منها علمًا مستقلًّا بذاته موضوعًا ومنهجًا.

- مِن بين هذه العلوم علمُ الدلالة الحديث الذي وظّفه بعض الباحثين في تفسير القرآن الكريم كما رأينا، وإن كان مبحث الدلالة قديم قِدَم الوعي اللغوي عند الإنسان.

- توظيف اللسانيات بصفة عامّة في الدراسات القرآنية مثار جدل وتخوّف من لدن الدارسين في مقابل من يتحمّس له، بل ويوظّفه في تفسير النصّ القرآني ليتوصّل إلى مدلولات جديدة تواكب التطوّرات المعرفية للإنسان، لكن هذا لا يخلو مِمّنْ يوظّفه توظيفًا أيدلوجيًّا محضًا يهدف من ورائه إلى ليّ أعناق الآيات القرآنية بما لا يتناسب مع مواقف وآراء مسبقة مخالفة للنسق المعرفي الإسلامي.

- يبدو أن السبب في أدلجة أو موضوعية القراءة اللسانية للخطاب القرآني، يكمن في منطلقين أساسيين (التحيز والمنهج)؛ فكلما كانت الخلفيات المعرفية

غير متحيزة أو متعصبة لرؤية مسبقة، وكان المنهج موضوعيًّا ينبني على التحليل العلمي والاستقراء؛ كلما كان التوظيف قريبًا من الموضوعية، وكلما كان العكس كانت القراءة أيدلوجية.

- ثمة أهمية للاستفادة من المعارف الإنسانية في دراسة العلوم الإسلامية بصفة عامة، والنصّ القرآني على وجه الخصوص، ما دامت سليمة وموضوعية وغير متحيزة، وتتوافق والنسق المعرفي الإسلامي.

قائمة المصادر والمراجع:

١ - الكتب:

- الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، مصطفى كيحل، أطروحة دكتوراه، جامعة قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٧/ ٢٠٠٨.

- الإنسان والقرآن وجهًا لوجه، احميدة النيفر (الدار البيضاء: دار الفنك، ١٩٩٧).

- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق: أبو الفضل الدمياطي، (القاهرة: دار الحديث، ٢٠٠٦).

- تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، (دار التقوى).

- الحداثة في التداول الثقافي العربي الإسلامي، سعيد شبار (الرباط: منشورات الزمن، ٢٠٠٢)، ع٣٦.

- دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس.

- روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، طه عبد الرحمن، ط١ (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦).

- السقوط الحداثي؛ نقد المنهج في التعامل مع النصّ القرآني، محمد علواش، ط١ (إربد: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ٢٠١٩).

- الظاهرة القرآنية عند محمد أركون؛ تحليل ونقد، أحمد بوعود (الرباط: منشورات الزمن، سلسلة شرفات، ع٢٨، ٢٠١٠).

- علم الدلالة؛ أصوله ومباحثه في التراث العربي، منقور عبد الجليل (دمشق: اتحاد الكتّاب العرب، ٢٠٠١).

- الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، توشيهيكو إيزوتسو، ترجمة: هلال الجهاد، ط١ (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٧).

- مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ط١٧ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٨).

- مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، ط٢، (الجزائر: دار القصبة، ٢٠٠٦).

- المعجم وعلم الدلالة، سليمان الغماش (موقع لسان العرب)، ١٤٢٨هـ.

- النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة، محمد مندور، (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٩٦).

- Arkoun Mohamed, Lectures du Coran , Maisonneuve-Larose 1982.

٢- المقالات العلمية:

- النصّ القرآني ومشكِل التأويل، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ع١٤.

- التحليل اللساني وعالمية القيم الدينية، مصطفى تاج الدين، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، ع: ٣٢- ٣٣.

- المفاهيم والمصطلحات القرآنية، عبد الرحمن حللي، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ع٣٥، (٢٠٠٤).

- النصّ القرآني والمنهج اللساني الحديث: قراءة في كتاب الله والإنسان للمستشرق الياباني توشيهيكو إيزوتسو، مصطفى تاج الدين، مجلة التسامح، ع١٧.

- النظريات النحوية والدلالية في اللسانيات التحويلية والتوليدية، مازن الوعر، مجلة اللسانيات، ع٦، الجزائر (١٩٨٢).

- ظاهرة القراءة المعاصرة للقرآن وأيدلوجيا الحداثة، عبد الرحمن الحاج، مجلة التسامح، ع١.

- علم الدلالة عند العرب، عليان الحازمي، مجلة جامعة أم القرى، ع٢٧، (١٤٢٤هـ).

- ما الحاجة إلى اللسانيات، عبد الرحمن الحاج، جريدة الحياة اللندنية (لندن، الطبعة الدولية)، عدد: ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٦م.

- نحو تأسيس علم مراجعات التراث الإسلامي، طه جابر العلواني، مجلة الإحياء، ع٢٩.

- استخدام علم الدلالة في فهم القرآن: قراءة في تجربة الياباني توشيهيكو إيزوتسو، عبد الرحمن حللي، شبكة الألوكة.

- حوار مع د/ أحمد عبادي، مجلة الإحياء، ع٢٩.

- الخلفية الاستشراقية للقراءة المعاصرة للقرآن الكريم؛ محمد أركون نموذجًا، أحمد نصري، أعمال اليوم الدراسي حول القراءات المعاصرة للقرآن الكريم؛ رصد ونقد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، ط١، ٢٠١٢.

- اللسانيات وتطبيقاتها على القرآن الكريم (دراسة نقدية)، آلاء سامي الرحماني، محمد خازر المجالي، مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية، المجلد ٢٩، العدد ٢، ٢٠٢١.

- المناهج المعاصرة في تفسير القرآن وتأويله، عبد الرحمن الحاج، ملتقى أهل التفسير، ٢٠٠٨.

- الموسوعة العربية العالمية.